الفيلسوف سبينوزا

على ذكر الاحتفال بانقضاء ٣٠٠ عام على ولادته

من كتاب « الفلسفة في كل العصور »

انتهيت من تأليف هذا الكتاب معتمداً بضعة عشر مؤرخاً للفلسفة من اشهر رجالها ، في اوربا واميركا ، كاردمن ، وتلي ، ولوس ، وزرز ، وماركس ، وجانيه وسيال وغيرهم وبعد انجاز تأليف اسعدني الحظ برعاية طائفة من اساتذة الفلسفة ومساعدتهم لي اء سفراً نفيساً مضبوطاً سهل التأخذ وافياً بالمرام في تاريخ الفلسفة وزعمائها ، ومذاهبها ، وتطورها ، وعصورها وتلبية لرغبة المقتطف تقدمت له المقالة التالية في « سبينوزا » سادس خمسة هم اساطين الفلسفة في كل ادوارها وهم : افلاطون . ارسطوطاليس . ديكارت . لينز . كنت : والسادس « سبينوزا » والكلام فيه مقسم الى ثلاثة اقسام ، هي ترجمته ، وفلسفته ، ورأيه في الخلاص

(١) ترجمته

ولد « باروخ سبينوزا » بامستردام هولاندا ١٦٣٢ . وهو من اصل يهودي برتوغالي . هذّبهُ الربّاني « موسى اوتيريا » ، وهو مفكّر يذكرنا بأتباع « ابن ميمون » المدرسيين ويرمي الى التوفيق بين الفلسفة والديانة اليهودية

رفض « سبينوزا » شرح التوراة بحسب فلسفة « ارسطوطاليس ». وارتقّا «بابن عزرا» وقد قرأ الأدب الجرماني على الطبيب « فرنزفان دن اند » وهو زنديق شهير ، والطبيعيات على الطبيب « لودويغ ماير ». وحرّمهُ المجمع الاسرائيلي سنة ١٦٥٦ ، فلم يكلمهُ احد حتى ولا شقيقته ، لانهم حسبوه كافراً . فلاذ برجل يدعى « بريفنبرجر » . وبرح امستردام الى الهاي . وعاش مع « فندريسبيك »

ولم يؤلف شيعة ، على ان كل فلسفة بعده ممتزجة كثيراً او قليلاً بافكاره . وكان الجيل الذي تلاه ينبذ نبذ الحذاء المرقّع .لكن « لينغ » ردّه الى شهرته .فدهش « جاكوبي » من كون « لينغ » سبينوزيًّا ، ولا فلسفة عنده الاّ فلسفة « سبينوزا »

ثم وجّه « هردر » الانظار الى كتاب : الاخلاق : اشهر مؤلفات سبينوزا ، ولقّبهُ « شليرميخر » : بالقديس المحروم ، ودعاه احد الشعراء : الانسان النشوان بالله ، ثم ألمت « جاكوبي » اليه نظر شاعر المانيا العظيم « جيته ». فقرأ هذا كتاب « الاخلاق» فوجد فيه الفلسفة التي تصبو اليها نفسه . فارتقى باعتناقها من الغرام الهمجي ، الذي ساد اشعاره ، الى ذرى الشعر الفلسفي . و بلغ « فخت » « وشلنغ » و« هيغل » مذاهبهم المنوّعة في « الوحدة الكون » بمقارنتهم فلسفته بالستموئوجيا (فلسفة المعرفة) كنت

وقد تولّدت : ذاتية : فلسفة « لينغ » من عبارة« سبينوزا »الشهيرة : حفظ الكيان: وكذلك شعار فلسفة كلٍّ من المفكرين «شوبنهور» و«نيتشه» وبرغسن . فشعار الاول: الارادة.

والثاني : القوة . والثالث النشاط . وعلا قدر «سبينوزا» في انكلترا مع انتشار الثورة . وترجم «شلي» رسائله في : الدين والسياسة . و «جورج اليوت» كتابهُ في الاخلاق . ومات سنة ١٦٧٧ . وفي القرن الثاني بعد وفاته اقاموا له في هرلاندا نصباً عديم المثال «دوزانت»

(٢) فلسفته

«سبينوزا» تلميذ «ديكارت» من حيث المنطق والمنهج . الاّ انهُ سار بمذهب «ديكارت» الثنائي الى تأليهِ الكون : معتمداً على اسناد «ديكارت» التصوُّرات الى الله . ويتناول تفكير «سبينوزا» ثلاثة موضوعات : الله والطبيعة والانسان ، او الجوهر وصفاته وصيغتهُ جانبه وبيانه

﴿ الله ﴾ : الله اول الفلسفة وآخرها

قسم «سبينوزا» الكون الى قسمين متمايزين مجموعهما الله . وكانت فلسفته جاشة الى مذهب «ديكارت» بحذف الله من الكون ، كانهُ لا صلة له تعالى به . واساس ذلك عنده ماهية الكون ، التي بها تتلاشى الاشياء . ونقطة تفكيره هي : ان الاشياء المحدودة وهمية

غرض الفلسفة عند «سبينوزا» الهرب من عالم الظاهرات ، التي لا تهب سعادة حقيقية ، واحراز النعمة التي يهواها العقل والقلب ، ولا يدانيها تغيُّر وهي وحدها الجديرة محبتنا ، لانها وحدة الكون السرمدية ، التي تضمُّ في ذاتها الاشياء الفانية ، وتهب لها اليقينية . وبلغة دينية هي — الله — فعوض استبداله تعالى من الاشياء ، اذا هو هي . فقادنا نتصها الى كماله . فان الفلسفة تتناول الواحد اليقين ، لا الاشياء الفانية

(المؤلف : لكي نفهم فلسفة «سبينوزا» نرجع الى الميتافيزيقا التي يعتمدها واليك بيانها)

الجوهر والصفات والصيغ : تتدرج كل حقيقة تحت ثلاثة رؤوس : الجوهر ، والصفة ، والصيغة

الجوهر : وهو ما وجد بذاته (دون استناد الى آخر) ، وفهم بذاته (دون افتقار الى ما سواه)

الصفة : هي ما صاغها الفهم كلباب الجوهر ، او خلاصته

الصيغة : او تطور الجوهر : هي ما قام بغيره ، وفهم به

فالجوهر واحد ابداً . لان المادة والعقل (وهما صيغتان) يقومان بالله ، لا بذاتهما . والماهية واحدة ، ازلية ، غير محدودة ، هي مناط الاشياء كافة . اما الصفات فلباب تلك الماهية ، والاشياء تغيرات الصفات او تطوراتها ، وهي فانية . وان علاقة الله بالكون طبيعية ، لا منطقية

﴿ الصفات ﴾ : صفات الله لا تحصى عدداً ، لكننا نعرف منها اثنتين فقط ، هما : الفكر والامتداد . فالفكر يحرك المادة ، والمادة تثير الفكر ، فهما متفاعلان . وبينهما تمام المطابقة . فكل صيغة فكر ، هي صيغة امتداد . ولما كان لا تداخُل بين الفكر والامتداد فالفكر يتوضح بمنهج فكري ، والامتداد بصيغة مادية ؛ فلا لبس بينهما . وسواء نظرنا الى الطبيعة بالفكر او بالامتداد فالنظام ، او ترابط العلل ، واحد

الله علة تصورنا الدائرة في العقل (هذا هو الفكر) وهو ايضاً علة وجود الدائرة في الطبيعة (هذا هو الامتداد) . فقد انشأ تعالى الصورة في فكرنا بصفته الفكرية ، وأوجدها في الطبيعة بصفته الامتدادية (المؤلف يعني «سبينوزا» ان الفكر والامتداد صفتا الجوهر)

الله العلة الاولى لكل الاشياء وهو تعالى كنهها ، ولباب وجودها . فالذين نسبوا القصد الى الحوادث الجزئية برهنوا على جهل مطبق . فاذا سقط حجر من علو ، فاصاب احداً فقتله قالوا ان الحادث فعل غائي ، اراد به الله ان يقتل ذلك الانسان . على انه ليس من غاية في الطبيعة . واعتقادنا القصد فيها مبني على تأنيسنا الله . فنعزو كل حادث اليه تعالى عزواً مباشراً . ونبحث في قلوبنا عن قالب نسبك الله فيه ، ناسبين اليه تعالى اشكال تقصتا . لذا نرى آلهة الناس تدير الطبيعة خدمة للانسان . فيختار كل واحد طريقاً خاصاً لعبادة الله ، الذي ميزه عن سواه ، ووفّق مصالحه . فيصير التميز خرافة سائدة متأصلة في النفوس . على هذا الاساس يجدّ الناس في استجلاء الغاية النهائية . فلا يرون في الحرب والزلازل والاوبئة ضرراً . وبالرغم من تكذيب حوادث كل يوم اوهامهم ، مبينة ان الخيرات والشرور تصيب الاخيار والاشرار سواسية ، نرى الناس لا يقلعون عن وهمهم

على ان شهادة الطبيعة صريحة ضد وهمهم . فان حرارة الشمس تكون خيراً في حال وشراً في حال آخر . وكذلك بلة المطر . وقد تكون هذه وتلك لا خيراً ولا شراً ، كالموسيقى فهي خير للسرور ، وشر للحزين ، وليست هذا ولا ذاك للاصم . فالذين لا يفهمون الطبيعة فهماً صحيحاً يحكمون ، وهماً ، بانتظام الاشياء ، فالمستحب عندهم منتظم ، وغيره فوضى . ويؤثر المرء نسبة النظام الى الطبيعة ، قائلاً : عمل الله كل شيء حسناً

(على ان النظام في عقولنا لا في الطبيعة) وكذلك الجمال محصور فينا ، في اختبارنا وفي حكمنا . فلا يجوز ان ننسب لله تعالى كالتي في الانسان . فاذا كان لله عقل وارادة فهما خلاف ما للانسان . فبماذا نصفه تعالى ؟ وهو اكثر من جوهر مجرد ! ... (روبرس)

(٣) الخلاص

﴿ الاستعباد الانساني ﴾ : نحن في ثورة عواطف ، لنقص محبتنا وتقلبها ، لاعتمادنا الاشياء المتقلبة المستقبلة ، دون الثابتة . فنحب ونبغض ، ونفرح ونحزن ، ولا ندرك السلام . فنحن عبيد العاطفة والجهل اللذين يقيّدان الناس . فاذا لم يكن للانسان يقينية في نفسه فكل جهوده عبث

حين يتوقف حفظ الذات علينا قلنا «فعل» . وحين يتوقف على خارج عنا قلنا «شوق» . فما هو اساس الفرق بين الافعال والاشواق ؟ يرجع الجواب عن ذلك الى الصفات والصيغ . فاننا اذا اعتبرنا ظاهرات معرفتنا العالم ، في احوال وجودنا ، قلنا « صيغ » . . . فنحن نظن اننا قد تحسسنا العالم الخارجي لم نتحسس الا شعوراً ، نتج عن التفاعل بين الموضوع وبين حواسنا

باعتبار كونه ناتجاً عن فاعلين فهو (اي الشعور) يمثل احدهما (التحسس الاشياء). وهذا هو تعليم نسبية الحس ومرجع هذا التعليم «بروتاغوراس». فمعرفتنا الحسية ناقصة وغير مطابقة

وهنالك طريقة اخرى لاعتبار العقل الانساني. فانهُ عدا كونهِ فانياً، هو قسم من طبيعة الله. بناءً على كون كل موجود كائناً في الله. فتصوراتنا، في جوهرها وابعد حدودها، ازلية. فهي مطابقة. فيرجع الفرق بين الافعال والاشواق الى الفرق بين الافكار المطابقة والافكار غير المطابقة. فالاولى كائنة في الله، والثانية فينا. الاولى أفعال، والثانية اشواق

والعواطف تصوُّرات ملتبسة او شهوة. والشوق الذي في النفس الى درجة عالية من الكمال هو «لذة» وبالاشارة الى اللذة والالم يجب تحديد العواطف على الصورة الآتية

المحبة لذة يصحبها تصوُّر خارجي: البغض ألم يصحبهُ تصوُّر نجس

الرجاء لذة غير حاصلة، ونشأت عن تصوُّر شيء مستقبل وهكذا

فلامتلاك الحرية جانبان (١) الهرب من العواطف (٢) الهرب من التصورات غير المطابقة. والفعلان واحد. فالنعمة الحقيقية هي المعرفة الصحيحة (سقراط) واعظم خدمة للحياة هي تكميل الفهم والذهن بشبع النفس الناشيء عن معرفة الله وصفاته واعماله. فالخير ما قاد الى المعرفة. والشر ما طمس معالمها. فقوتنا فهمنا. وضعفنا جهلنا. وليس البغض وحده رذيلة، بل ايضاً الجبن، والخجل والقلق، وجهلنا قدر انفسنا. فمن عاش بحسب الذهن يترفع عن الرأفة والخنوع، ويتقابل الحياة بصدر رحيب، ولا يطيع سوى وجدانه. فالحرية ثمرة الفلسفة

يزعم الناس انهم يفعلون احراراً، لانهم عن وعي يفعلون، كالطفل اذا جاع فانهُ يأكل، وكالجندي في الجبهة، فانهُ يجاهد. وقد فاتهم ان الحافز هو وراء الافعال. وان كل الافعال ثمرة الضرورة الالهية (للتحكمة في الوجود: فالانسان مسيَّر يتوهَّم انهُ مخيَّر) فعلى المرء ان يفهم تلك الضرورة، لا أن يحاربها

متى رأينا الاشياء في الله، مرة واحدة، زالت المعاكسات فينا. فمصدر الالم حسّنا ما لا سبيل لنا الى الحصول عليه. فلا يشتاقنَّ المرء الاّ لما هو في متناول يده. فالقوَّة تظهر المعرفة وتعيّزها. ومعرفة الله تتغلَّب على العواطف. وبذلك تستولي على العقل محبة ازلية. ذهننا حر من الحواجز، لانهُ قسم من الاله غير المحدود. «حقائق الاختبار كحقائق البديهة — كلها — مستمدة من الحقيقة الواحدة — الله. عن هذه المعرفة ينشأ شبع النفس. وكلما زدنا معرفة زدنا خيراً وبركة وحبًّا لله. وهذا الحب هو حب الله ذاته فينا

يتلخص تعليم الحرية في القواعد الآتية: — ١ً: العمل بحسب ناموس الله، والاشتراك في طبيعته. ٢ً: صرف النظر عما ليس في الحول ٣ً: عدم البغض او احتقار الآخرين او حسدهم الخ. ٤ً: معرفة الامة كيف تحكم وتحكم، كاحرار لا كعبيد (روجرس)

يمثل سبينوزا ارقى صورة للاخلاق واقسام مذهبه هي: —

١ الله ٢ اصل العقل ٣ اصل العواطف وطبيعتها ٤ قدرة العقل او الحرية الانسانية

﴿الله﴾ : اذا كان الجوهر مستقلاً فهو غير محدود . فلا يكون في الوجود الا جوهر واحد. ولا يوصف الجوهر باوصاف الشخصية أو الفردية ،لان تلك الاوصاف مختصة بالمحدود

الله والطبيعة واحد . هو المبدأ الفياض في الكون — الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة وعبارته اللاتينية هي هذه Natura naturans et natura naturata

﴿الصيغ﴾ : هي اشواق الجوهر وتطوراته . فلا تدرك الا فيه

الانواع سرمدية ، والافراد بائدة (افلاطون) يتجلى الجوهر الازلي بطرق لا تحصى في نظام التطورات ، وفي نظام الاجسام . فمجموع التطورات هو العقل المطلق ، غير المحدود. ونظام الصيغ هو حركة وسكون . والاتفاق معاً مجلى الكون . وهذا الخير سرمدي ، الا ان تتمة تتغير . فالطبيعة جسم عضوي (كبير جداً) تتغير صوره وتظل ذاتيته . فاذا رمنا ان نصور الله بصورته الازلية فهو : صفاته غير المحدودة . واذا رمنا ان نتصوره في الزمان فهو الكون . فالله هو الكون

منهج «سبينوزا» الرياضي دليل تأثير «ديكارت» فيه . فاليقين الرياضي والفلسفي واحد. لأن الادلة الرياضية جلية بطبيعتها ، فلا يسلم سبينوزا بالغاية في الكون ، اذ لا غاية في الرياضة . وعنده عوض الغايات تعليلات . فان الفضاء علة الاشكال الهندسية ، بل هو شرط وجودها الضروري . فهي غير ممكنة من دونه . وواضح ان ليس هنالك غاية

فنقطة شروع «سبينوزا» مضمون الكون المنطقي ، لا علة الاشياء او خالقها . والله عند «سبينوزا» الطبيعة . فمن اراد ان يفهم فلسفته فليبدل كلمة (الله) حيث وجدها (بالطبيعة) فهو مراده. وتصور انعدام الصيغة ممكن، لانها بالجوهر تقوم. أما تصور انعدام الجوهر فمستحيل، لانهُ بذاته يقوم (فهو واجب الوجود) وبه تقوم الصيغ . فالازلية مختصة بالجوهر . هو الوحدة الشاملة . والصيغ جزئية هو مجموعها ، يؤلفها ولا تؤلفه . كالامواج بازاء البحر وكالمربعات الصغيرة في المربع الكبير. فقد كان قبلها ويبقى بعدها . الا ان الامواج لا توجد دون البحر ، ولا المربعات الصغيرة دون السطح الذي هي عليه

الانسان مؤلف من صفتين — الفكر والامتداد — فالانسان في الله كغيره — لان الله ليس الانسان جسداً ، فقط ، ولا ارادة كذلك . لان الاول امتداد ، والثاني فكر . فهو مجموع الاثنين . وقد تكون كلمة «طبيعة» اكثر انطباقاً على الامتداد غير المحدود . فالله والطبيعة ، لفظان يعربان عن الفكر والامتداد ، وهما نعت الكائن . الجوهر شرط ، وكل موجود شرطي. فامتداد الجوهر شرط الطويل، وفكره شرط الفكر. الاول اساس الدائرة في الطبيعة والثاني اساس تصورها في العقل. الجسم مؤلف من ذرات ، والعقل من تصوراته . اردت

هذا خطأ